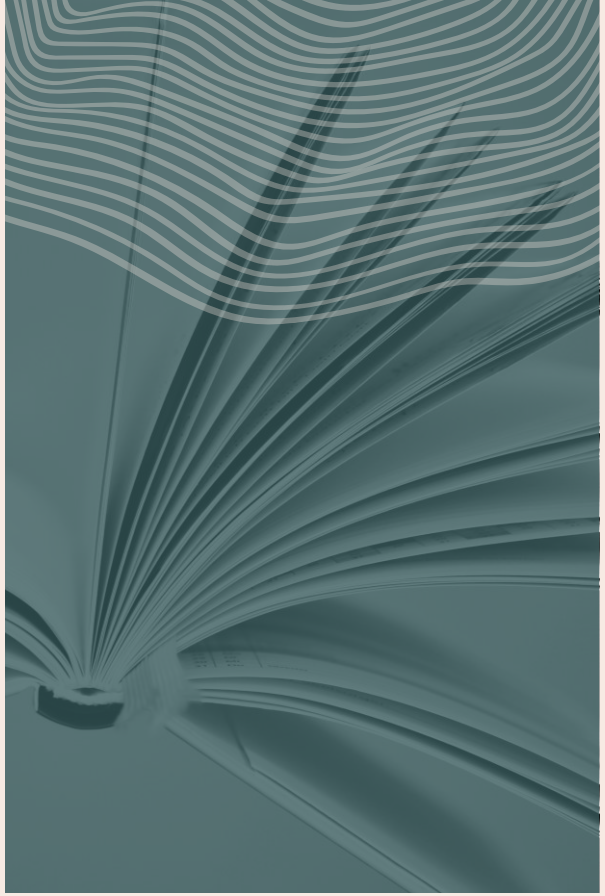

أهمية البناء السردي للمعنى

يستحيل تأسيـــس نظام متين وفعال للمعنى بمعزل عن أية سردية تاريخية عامة؛ فبناء المعنى شخصيًا وتاريخيًا يتم عبر الربط بين الماضي والحاضر والمستقبل؛ ليبـدو وكأنه قصة متماسكة، فالمعنى يرتبط بالزمن لأنه ينبني على التوجّه الغائي، وهو حالة مستقبلية توفر هيكلًا للحاضر، أي أن الحاضر مبنيٌ على الهدف المستقبلي، ومن ثمّ ترتبط أزمنة مختلفة في قصة واحدة.

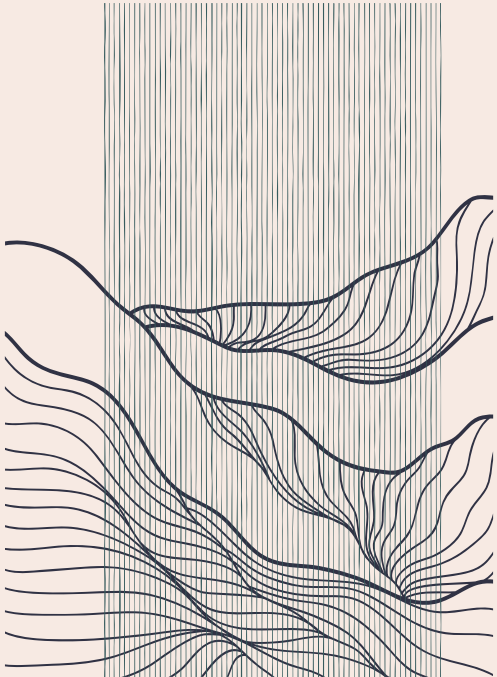

ولاستحالة الحصول على لحظة حاضرة نقية، فكل طريقة للعيش في الحاضر بما فيها الانغماس في لحظة الآن؛ **هي طريقة لاستيعاب الماضي، وتوجيه الذات إلى المستقبل**، ومن ثم يتعذر اختراع معنى بمعزل عن تتابع الزمان الماضي والمستقبل، لأن المعنى لا يبنى خارج الزمن، ولا يمكن لـ «الآن» أن يوقره، لأن «الآن» زمن عابر.

الفصل التاسع
من المعنى إلى التعبد

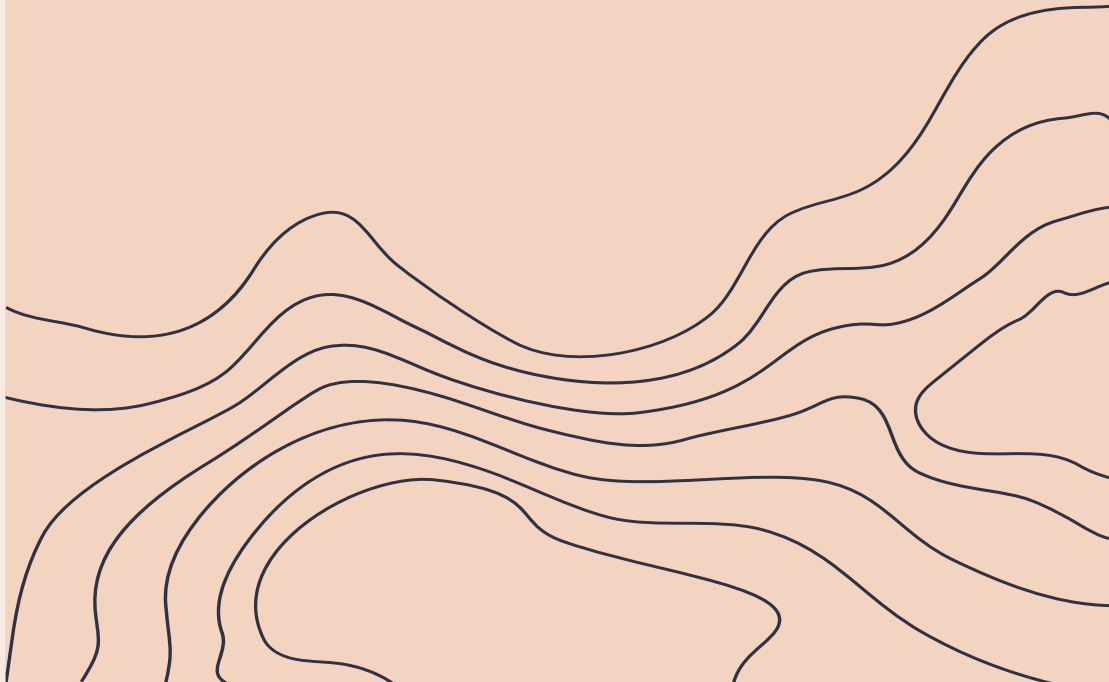

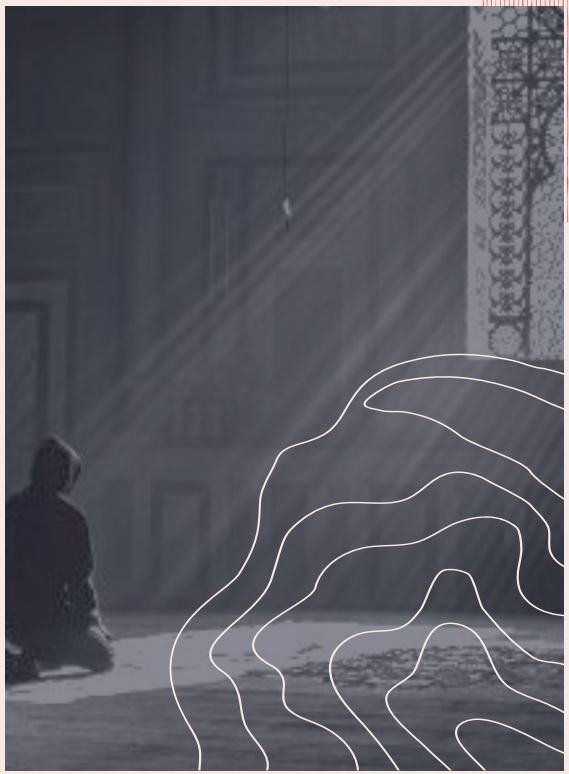

عمق الاحتياج إلى التدين

إن تشـوش الموقف الوجـودي أو انعدامه يهدد البنية النفسية للإنسان، ويعـــرّض اتزانه العقلي للمخاطر، فالثقافة الحداثية بتخلّيها عن إدماج الفرد في نظام عمـومي للمعنى، وضمور رؤاها الرمزية الجماعية تجـاه الوجود والعالم والحياة والموت؛ تهدّد الســواء العقلي والنفسي للفرد، فالدين في أوسع معانيه نظام توجيه وموضوع إخلاص.

ومعضلة الإنسان الأساسية تكمن في طبيعته التناقضية، فنصف جوهره حيواني والنصف الآخر رمزي، فجسده مكون من لحم دم، ويمـرض ويتحلل، إلا أنه واعٍ بوجـــوده، ولديه شعور كلي بحركة الزمن، وهو ينطـوي في باطنه على توق للخلود والأبدية، ويقين بالفناء، ولا يمكنه حـل مشكلته الإنسانية ولو أتم إشباعه لحاجاته الغريزية، فأشد عواطفه وحاجاته تلك المترسخة في الخصوصية الشديدة لوجوده.

وكون وجــوده بحد ذاته مشكلًا ينبع من اضطرار الفرد القسري للفعل والاختيار الدائم وتحمــل مسؤوليته الخاصة، وهذا محـك أساسي في الوجود البشري، ولا بد للفرد من معالجته والسعي إلى تحصيل ما يسهل التفضيل بين هذه الأفعال والخيارات ويحقق الانتظام والاتساق بينها، وهــذه الخيارات والتناقضات الدائمة يمكن استيعابها وعقلنتها ضمن الإطار الديني ومعاييره، وبتلبية الحاجة إلى الإيمان العميــق والالتزام الروحي الكثيف.

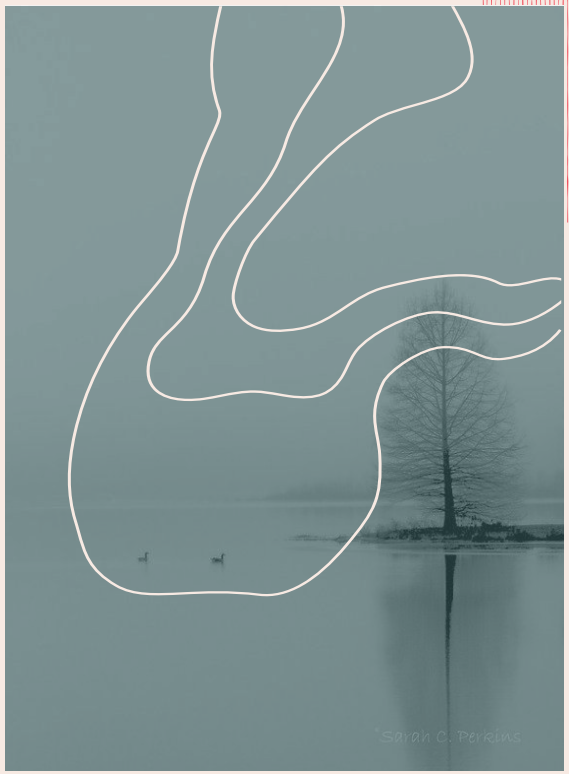

معنى الألم

وعـــدت الحداثة أتباعها بالانتصار على الشرور في الحياة البشرية، وتحقيق الرفاه والرضا، وروّجت لاعتقاد أن التطـــورات التقنية الجديدة في شتى المجالات ستقود البشرية يومًا ما إلى السعادة، بعد السيطرة على منابع الألم، ومـن هنا أخـذت الحداثة على عاتقها مكافحة أشكال الألم والمعاناة كافة.

ونظرًا لأن الألم يرتبط جـوهريًا بالمعاني الثقافية والرمزية والدلالات الاجتماعية ويؤثــر ذلك كله في وقع الألم نفسه على الجسد؛ فقد رصدت العديد من الدراسات التحول الحديث في الموقف من الألم، وأشـار بعضها إلى دور التطور الطبي في مجال التخدير والمسكنات؛ مما أضعـف من تعامل الإنسان الحديث مع الآلام -مهما صغرت-، كما ضمرت الأنماط القديمة في مواجهة الألم كالمواساة والدعم، وتضاءل الشعــور بالمعنى الديني للابتلاء، بعـد أن فقدت هذه الأنماط عمقها الاجتماعي، لفشـو أنساق العلمنة الثقافية.

إن الانغماس في الذات وفي اللحظة الحاضرة يعمّق الشعور بالألم، فالألم يقوّي الشعور بالجسد، ومن ثمّ تسيطر الأوجـاع على الوعي، ولذلك فمقاومة الآلام -على المستوى الشعوري والرمزي- تبدأ من إخراج الوعي عن الزمن الآني، وإدمـاج الذات والهوية والشعور داخل أفق زماني ممتد يجعل للألم معنى، ويقوّي من تحملّ الفرد للأوجاع والمعاناة الدائمة.

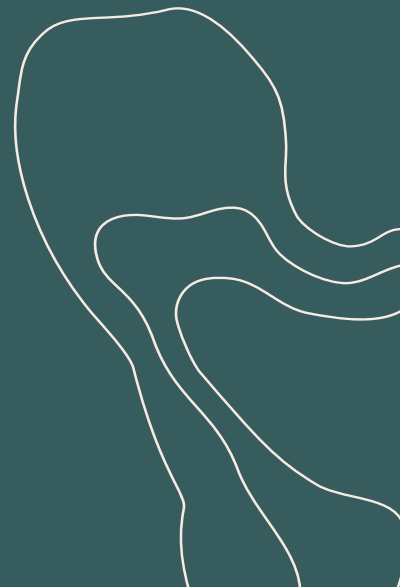

معنى الموت

عند تحليل بنى الشرعية والمعقولية الذاتية التي ترسّـــخ من حضور مؤسسات النظام الاجتماعي وتقاليده، سنرى أنها تتألف من «عوالم رمزية»، وهي أنظمة دلالة؛ تتكــوّن من الصور والعمليات الدلالية التي تعلو على التجربة اليومية، وتتشكّل ضمن إطار مرجعي عام، ووظيفة هذه «العوالم» شرعنة السيرة الفردية لأفراد المجتمع والنظام المؤسسي عامة.

وأوضــح تجليات بنى الشرعية والمعقولية تظهر في الموقع المركزي لـ «الموت» داخـل هذه «العوالم» حيث يُحاط بهالة من الاستعدادات والطقـوس والترتيبات التي تساعد الفرد على فهم الموت، وتقبُّله إذا اقترب منه، وتقبلُّه قبل ذلك إذا وقـع لأحبابه، فإدماج الموت ضمن الواقع الأسمى للوجـــود الاجتماعي له أهمية عظمى في أي نظام مؤسسي.

وهــذا الأمر لا يقتصر على الأديان فالملحد الحديث يضفي معنى على الموت في صور رؤية العلم من منظور التطور التقدمي، أو منظور التاريخ الثوري، فالنظام المؤسسي للمعنى في الواقع الاجتماعي يحمي الفرد من رعــب الوحدة الوجودية أمام الموت، والعوالم الرمزية تؤسس إطارًا زمنيًا يتموضع فيه الفرد بصورة تجعل المعنى من حياته ووجوده وموته معقولًا.

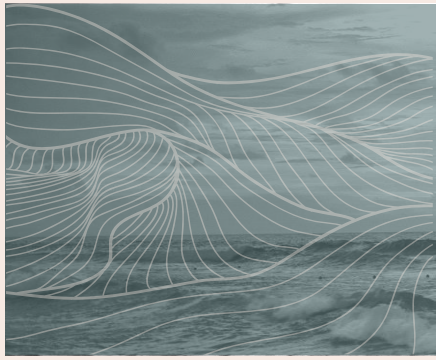

ويبرز الترابط بين الموت والمعنى في موقفين أساسيين:

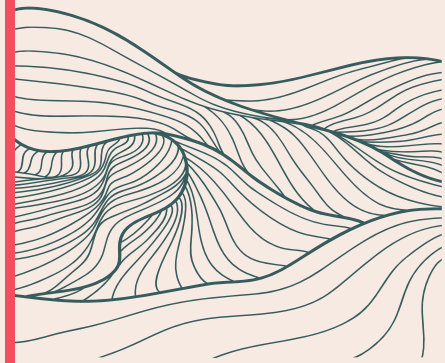

أولًا:

الطريقة التي يواجه بها الفـرد المعاصر الموت؛ فقد تحولت مقدمات الموت كالمـرض والشيخوخة في المخيلة الحديثة إلى كومة من الآلام والمعاناة السلبية؛ ولذلك فالمجتمع الحداثي يتباعد قدر ما يمكنه عن كل ما يتعلق بالموت أو يذكر به.

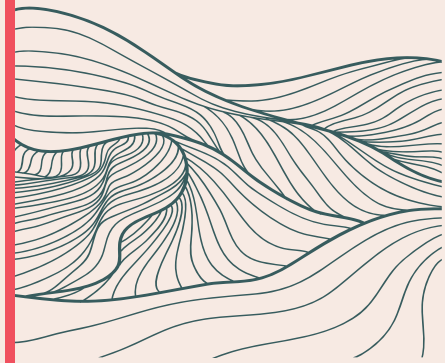

ثانيًا:

الطريقة التي يتلقى فيها الإنسان مـوت الحبيب أو القريب، وفي طقـوس الجنائز، ومحاولات ربــط الفقيد بشيء أبدي، وقد تقدّم الجنازات الدينية نوعًا من العزاء؛ لكونها تتضمن لغة تتوافق مع الحاجة إلى الأبدية، إلا أن إنكار الخلود في الزمن الآخر، واعتقاد الموت الأبدي للذات وللآخر المحبوب؛ يجعل ألم الفقد والفراق مضاعفًا ومدمرًا قد يفوق قدرة الفرد على التحمّل.

إن معنى الموت يتضمن في الأديان السماوية الإشارة إلى مستقبل أبدي في عالم آخـر؛ **مستقبل يعوض النقائص الدنيوية على نحو تام وشامــل، ويعاود وصل الأحباب الذين فرقهم الموت**، وكـل المحاولات البديلة لمعالجة أزمة الموت مـن غير الوعد بالخلود تظل قاصرة وغير مشبعة.